الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأول[١]

(أ) فتح العرب لمصر:

معروف أن مصر نهت بأقدام دور في تاريخ الحضارة الإنسانية، فعنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشامخة. كما تلقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة، وأعدها النيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور. وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنْت والنَّوبة. ودار بها الزمن دورات، فدخلها الرُّعاة الهكسوس والآشوريون،

(١) انظر فى فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البدلان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والغرب لابن سعيد قسم الفسطاط طبع جامعة القاهرة وخطط المقريزى (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ١/ ٥٥١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى:فواتح الجزء ومروج الذهب للمسعودي وحسن المحاضرة للسيوطي طبعة عيسى البابي الحلبى) ١/ ١٠٦ وفتح العرب لمصر لبتلر الترجمة العربية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبعة بيروت ١/ ٩٩.

obeikandi.com

وسرعان مازايلوها، وغزاها الفرس في عهد قمبيز عام ٥٢٥ق.م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق. من وأسس بها مدينة الإسكندرية، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم.وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان، وثارت عليهم مصر مراراً، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان، ففارقوها سريعاً، وتسوء أحوالها سوءً شديدًا، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد مَنْ لا يعتقدون مذهبه الملكاني المسيحي، وكان المصريون يعاقبه، ويقولون بأن الله والمسيح اتحدا في طبيعة واحد بينما كان الملكانية يرون أن المسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة، ويعنف بهم وبرهبانهم ويقل عليهم في الضرائب. وبذلك يضيف إلى الغُل الديني غلا اقتصادياً.

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاصر يقبلون من الشرق عام ١٩هـ/ ٦٤٠ ويستمرون في زحفهم حتى حصن بابليون بالقرب من ممفيس القديمة ويطول حصارهم له، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم، ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية. ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعا سوى الروم. وكأن المصريين وجدا فيه وف العرب

obeikandi.com

مخلا لهم، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولا يمس كنائسهم ومعابدهم، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني.

ودائماً الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء. وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحريتهم الدينية، حتى لقد فر البطريق القبطي بنيامين وظل مختبئاً حتى دخل العرب مصر وكفلوا للبط معتقداتهم الدينية، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة. فكان طبيعياً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيدهم من الروم، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدًا منهم، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العار هزيمة ساحقة عام ٦٤٦م/ ٢٥هـ ومن بقى منهم ولى في البحر المتوسط إلى غير مآب. وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة.

(ب) زمن الولاة[٢]

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة، وكان أول ولاتها عمرو بن العاصر الفاتح لها، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجده الذي يحمل اسمه والذي بناه في الفسطاط:

---

(٢) انظر فى ولاة مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب الولاة والقضاء للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول والثاني من النجومز الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الاثير وابن خلدون وخطط المقريزى ١/ ٥٦١ وما بعدها وحسن المحاضرة ١/ ٥٧٨ ما بعدها.

obeikandi.com

موضع معسكره في حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة. وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة. وكان ذلك إيذاناً باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها. ويلي مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبى سرحن وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في أفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم، وتسمى الغزوة "ذات الصواري" لكثرة ما اجتمع فيها من السفن. ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه، واختلف عليها ولاة لعلى رضى الله عنه، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفي سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاصر الأولى جولات بعيدة، وستصبح له فيها بعد حين يوليه معاوية قيادة الفتوح في المغرب حولها أكثر عمقا، يختط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية.

وتولّى مصر بعد عمر بن العاص ابنه عبد الله اشهرا، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا، إذ اتبع الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاة، وهى سنة سيئة، إذ كان الوالي يَقْدم وهو يعلم أنه معزول عما قليل، فكانت لا تهمه شئون مصر بمقدار ما تهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل. وربما كان خير وال أموي وتولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا، وإليه شَدَّ الشعراء الراحل من لحجاز

ونجد والعراق، ويقال إنه كان له ألف جَفْنة (قِدر) تُنْصَبُ كل يوم حول داره لإطعام الناس، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل، ولا ريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب، وما يؤدى من ضرائب باهظة. وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة.

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية. وقد وجد الولاة يلزمون كلمن اسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف، فوقف كل هذا الظلم وما يجرُّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين، ومن ذلك ما كتب من حيان بن شُرَيْح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر: "ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ويقول (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهَّ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ). ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه غاضباً: "قد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم، قبَّح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هادياً لوم يبعثه جابياً"(٣)

(٣) نظر فى هذه الرسالة وسابقتها خطط المقريزي ١/ ١٤٢ وبما بعدها.

وأضطر حيان ن شريح أن يصدع لأمر عمر، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة، إذ سرعان ما توفي لأول سنة في المائة الثانية، فعاد ولاة بنى أمية على سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر، ومضوا يعصرون القبط، سواء منهم من اسلم ومن ظل على دينه. وبذلك نفهم انتقاض القبط على الوالي سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين، فإن الولاة لم يكونا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرَّمه من الظلم والعسف. وظلت الفسطاط حاضرة الوالي الأموي منذ اختط عمرو بن العاصر للناس منازلهم فيها، ولا تزال آثارها باقية على اليوم. يقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحياناً من ست طبقات أو سبع. ولم قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسي إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط، وكان ينزلها ولاة بنى العباسي، وتلقناه بعض انتفاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لا نعود نسمع عنها، إنما تلقانا انتقاضات للعرب. وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ما تم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وأمتزوجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة. وأول انتقاض يلقانا- للعرب- انتقاض دِحْية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد ولى موسى بن مصعب الموصلي فشدد في استخراج أموال الخراج وضعف ما يُطْلَبُ من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس واليمانية، وانتهى أمره بقتله. وقُضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظل نسمع عن انتقاضات في الحوف الشرقي، ويستغل الفرصة الجَرَوى في تَنِّيس وبنو السري الذين استولوا حينا على مقاليد الأمور، مما اضطر أن يسن

إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين. وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الربضى الأمير الأموي ويأمرهم بمغادرة البلاد، فينزلون الإسكندرية ويستولون عليها. ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ وخْرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها. ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتقض أهل الحوف مرارًا، ويثور القبط، ويضطر المأمون إلى القدوم بعكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ما بها من فتن. ويأمر وإليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة ق القرآن المشهورة. ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم وفي نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب في الدواوين بمصر وغير مصر، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائيا في أهل مصر من القبط ومن اسلم منهم. ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة.

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد، وبنُى له "العسكر"، أكثره إن لم يكن كله من الفرس في جملتها، وكان كثير ممن يسد إليهم الولاية بمصر فُرْسًا، وبالمثل من كان يُسْنَدُ إليهم القضاء. وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمنيين في فتح مصر، إذ كانت اليمن في الجاهلة تابعة حينا للفرس فكان بها عناصر فارسية، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمنيين في رحلاتهم للفتوح. وبذلك كله نستطيع ان نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين.

obeikandi.com

(ج) الطولونيون [٤]

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا، وحقا كانت تتبع العباسية، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون، وهو تركي الأصل، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ فعنى بتربيته، وبدا بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه، واكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها. ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل، ففوض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال، وولى بعض الثغور، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء، ونال الحظوظ عند الخليفة المستعين، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في متله فأبى ذلك. ولم تلبث مصر أن أُقْطعت لزوج أمه بايكباك، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها، وبدأ ذلك بأن جعل في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية، وأتخذ جيشا ضخماً بلغ عداده مائة ألف، وفي أثناء ذلك ضُمَّتْ إلى حكمه الإسكندرية وبرقة، ولا نصل على سنة ٢٦٤ حتى تضم إليه الشام. وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات. وكان قد سكن

---

(٤) انظر فى الطولونيين تاريخ الطبرى واليعقوبي وأبن الأثير وابن خلدون والجزء الثال من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندى (طبعة صادر) ص٢٣٩ وما بعدها وخطط المقريزى ١/ ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوى (طبعة محمد كرد على) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين فى دائرةالمعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الغسلامية لبروكلمان ص٢٢٠.

obeikandl.com

العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع، بادئاً بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولحواشيه من القواد وكبار الموظفين. وعُنى ببناء مسجده الكبير، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفراد وحوانيت. وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً يُلْعَبُ فيه بالكرة، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينا، وبنى ماستانا ضما، وأتخذ لنفسه ديواناً كبيراً على شاكلة دواوين الخلافة. وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما. وعُنى في دولته بأن ينقل غليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء. وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه. ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠.

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمَّل لها من ازدهار. وتحدث في أوائل حكمة مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق، وسرعان ما ينعقد بينهما صلح وثيق. ويقال إن رواتب الجيش المصري بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار، كما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به. وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته، وزاد في قصر أبيه وحوَّل الميدان الذي كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران، غير ما اتخذ فيه من الفسقي والنافورات، وسنعرض لذلك من غير هذا الموضع، ووسع إصطلابته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية. ويقول المؤرخون: كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر. وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى، وبنوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحب وهدايا نفيسة،

obeikandi.com

ويقولن أن خماوريه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصًرا فُرش أروع فرش. ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتره به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدي غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢. وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما "أبى الجيش" ولا يدور العام حتى يخلعوه، وبولوا أخاه هرون وكان ضعيفاً، فلم يستطع لا هو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشَغَبِ جيوشهم في الشام، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفي أن يغيثهم بجنده ويلبى استغاثتهم. ويُغتال هارون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيبان الحكم أثنى عشر يوما إذ سرعان ما يَقْدمُ إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان، فيزيل حكم الطولونيين، ويبكيهم الشعراء طويلا. وتعود مصر ثانية ولاية عباسية، ويتعاقب عليها ولاة مختلفون من بغداد، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا، ويُدْحَرون مرارًا، ويحجزهم إلى حين الإخشيدُ وأبناؤه.

(د) الإخشيديون (٥)

الإخشيد هو محمد بن طُغْج بن جُفّ الفَرْغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسين، كما خدمهم بدوره، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء

(٥) انظر فى الاخشيدين تاريخ ابن الاثير وابن خلدون والولاة للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والغرب (قسم الفسطاط) ص١٤٨ وما بعدها وابنخلكان (طبعة دار صادر) فى تراجم الإخشيد وكافور وخطط المقريزى ١/ ٦١٧ ومروج الذهب للمسعودي ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف، وراجع مادة إخشيد فى دائرة المعارف الإسلامية.

obeikandi.com

وقوادهم حتى ولَّوه الثغور، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها، وظل على دمشق حتى ولاه الراضي مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين. وفي سنة ٣٢٧ خلع عليه أراضى لقب الأخشيد، وهو لقب ملوك فراعنة موطن أجداده، وغلب اللقب على اسمه. وولى ابن رائق أمر دمشق، فجمع جنده لحرب الإخشيد، وتنشب الحرب، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابنُ رائق مدية الرملة للأخشيد وتظل معه بقية الشام، وسرعان ما يتوفي وتعود ديار الشام جميعها إلى الأخشيد. وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وإنطاكية وحمص، أما باقي بلاد الشام فتكون للأخشيد. ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفي لآخر سنة ٣٣٤. وكان حازما يقظا في حروبه وتدبير شئون دولته مكرما لجنوده. ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمائة ألف، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم في كل ليلة ألفان. وكان أنوجور ابنه في الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية، أما الولاية الحقيقة فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذي اختاره وصياً عليه، وكان عبدًا أسود خصيًّا، وأختلف- فيما يبدو- إلى حلقات العلماء، واشتراه الأخشيد وأعجب به فأعتقه وما زال يرقى به في المناصب حتى أصبح من قواده. ولما توفي سيده نهض بشئون أبنه أنوجور على خير وجه، واس مملكته خير سياسة، وكان الحاكم الحقيقي صاحب الأمر والنهى في إقليمي الدولة الكبيرين: مصر والشام. وكان يدنى الشعراء ويكثر من عطائهم، وزار مصر حينئذ المتنبي، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة.

وما زال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفي سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفي سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيرًا له. وكان يُدْعَى له على المنابر في مصر والشام ومكة والحجاز. وكانت تُقْرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية، وكان سيوسا ماهرًا، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفي الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمي صاحب المهدية والمغرب ويظهر مليه إليه خداعاً. وكان على علم بالعربية، وكان كريما معطاء. وكانت أيامه أيام هناءه ورخاء، ولم يلبس أن توفي سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الأخشيد، وكان صبيا في الحادية عشرة من عمره، واضطربت الأحوال في الشام اضطرابا شديدًا لغارات القرامطة هناك، وعَيْثهم في الأرض فسادًا، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولى على البلاد وانقرضت الدولة الأخشيدية.

obeikandl.com

الفاطميون- الأيوبيون:

(أ) الفاطميون[٦]:

تنتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنى عشرية. وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًّا لأئمتهما العلويين من سلالة موسى وإسماعيل: وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح، وهو فارسي من الأهواز، وكان ملما بالفلسفة والملل والأديان، فنظم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية. وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَلَمْية بالقرب من اللاذقية في الشام، ومن هناك اتخذ دعاة للنحل الإسماعيلية في العراق وغير العراق، مما هيأ لظهور القراطمة في البحرين وجنوبي العراق، كما هيأ لظهور داع إسماعيل من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله، وتصادف أن التقى في اثنا الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية،

---

(٦) انظر فى الفاطميين المنتظم لابن الجوزى وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الاثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دار الكتب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢/ ٢١ وما بعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والربع والخامس من النجوم الزاهرة لابن تَغْرى بَرْدى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى والنكت العصرية لعمارة المنى وصبح الأعشى فى مواضع متفقرة والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز.

obeikandi.com

فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمروه عليهم وسار معهم إلى موطنهم، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغالبة حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَلَمْية عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر، وتدين له البلاد، فيتقلب بالمهدي ويعلن نفسه خليفة شرعياً، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميا المهدية نسبة إليه.

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين: أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرِّين، وأئمة بجانبهم مستودَعين هم رءوس الدعاة المسمون بالحجج، وذلك كان هو نفسه إماماً مستودَعا، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء، فيقل إنه فاطمي حقيقية وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفي والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم من العباسيين، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده. ومما شكك في هذا النسب المحضر الذي كتبه الخليفة القادر العباسي سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن في نسب الفاطميين. وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن وما يطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبة إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء.

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر، وتَشُنُّ عساكره غارات على مصر، ويتوفي سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولي جنوده على المغرب، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة، ويتوفي سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائياً على ثورة الخوارج، ويتوفي سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة

obeikandi.com

الفاطمية، وتدين له المغرب بالولاء ما عدا سجِلْماسة وفاس ويفتتحها قائده جوهر الصقلي ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسي ما عدا مدينة سَبْتة، فإنها ظلت لبنى أمية أصحاب الأندلس.

وكانت عين المعز على مصر، فلما وصلة الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذي كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهرا بالاستعداد لفتحها، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل ما يلزمه من المال والسلاح. ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان. وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجيزة ودخل الفسطاط والبر الشرقي بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية. ونزل بالقرب من الجامع الأزهر، وأخذ توا يختط مدينة القاهرة. وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح، وقطع الخطبة لبنى ولبس السواد شعارهم، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة "اللهم صَلِّ على محمد المصطفي وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبِطُى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس وطرَّهم تطهيراً وصَلِّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين اللهط. وأخذ جوهر ف بنا الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين. واختط قصر الخلافة، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة، واختطَّت كل قبيلة- خِطة عُرِفت بها وبنيت حاراتها من يومئذ، ومن مثل حارة الروم والحسينية والخرشتف. ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيهما وفي الحرمين. وفي نفس السنة ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذنوا بحَيَّ على خير العمل. وظل جوهر مستقلاً تدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين

obeikandi.com

يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلاً حازماً أديبا، وتروى له بعض أشعار، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية، ولم تبق لد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلى أقيمت فيه دعوته وخُطب له في جمعته وجمعته وجماعته إلا "سَبْتة" فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا. ولما استقرت له الأمور استخلف على إفريقية يوسف بُلُكِّين بن زيري الصِّنهاجى. واستمر جوهر في علو منزلته في سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١.

وتوفي المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتي عام، وخلفه ابنه العزيز نزار، وكان كريما شجاعا، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم. واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام: حمص وحماة وشَيْزر وحلب، وخُطب له بالموصل وباليمن. وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته، منهم يعق٤وب بن كِلسٍّ وكان يهودياً وأسلم. وبنى قصر البحر، ولم يكن له مثيل شرقا ولا غربا، وقصر الذهب. وقال ابن الجوزي إنه ولى عيسى بن نسطوروس النصراني ومنشأ اليهودي فكتبت إليه سيدة مصرية بالذي أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت في أمري، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار. ويُرْوَى أنه كان يقول: "أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي".

obeikandl.com

وما زال العزيز رقيقا برعيته حتى توفي سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سَوِيَّ العقل ولا النفس، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء، وتارة يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، وتارة يجلس في الظلام الدامس، وحينا يحبّ العلماء والصلحاء، وحينا يفتك بهم في غير رحمة، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة وتارة يأمر بأن يُكْتب على المساجد والجوامع سبَّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك. وتارة يمنع من صلاة التراويح وتارة يبيحها، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والترمس والجرجير والسمك لا قشر له والزبيب. وحرَّم الخمر وشدَّد في تحريمها ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها، وأراق في النيل خمسة آلاف جرة عسل خشية أن تصير نبيذا. وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهاران ومنع لذلك الأسكافة من صنع الأحذية والخفاف لهن وظل ذلك حتى نهاية كمه وحرَّم- فيما حرَّم- الغناء ولعب الشطرنج والنزهة على ضفاف النيل، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله. وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون- مستضيئين بنظرية الفيض الأفلاطونية- أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة، مما أدى بالحكام إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه ذلك دعاته، وفي مقدمتهم داع دُرْزى من جبال لبنان، ويقال بل هو أعجمي دعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك. وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى النُّصَيْرية في سوريا، إذ يؤمنون بربوبية على بن أبى طالب. ولما لم يعد في قوس الصبر منزع حيكت مؤامرة لقتله

وتخليص البلاد من شره وخبله، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبَّرت قتله.

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر، وله ست عشر سنة، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة، واستقام الأمر للظاهر، وعدل في الرعية، وأعلن البراءة من عقيدة النُّصَيْرية والدُّرْزيَّة جميعاً. وحوالي سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلبي واستولى على حلب، كما خرج حسان بن المفرج البدوي وإلى مدينة الرملة وتغلب على أكثر الشام، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتهما جيوشه عند غزة، فانهزم حسان وقتل صالح، وعادت الشام إلى الطاعة. وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحاً حليماً محبّبا للرعية.

وتوفي الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقه بن يوسف الفلاحي استوزره سنة ٤٣٦، وكان يدبر له الدولة أبو سعد التسترى اليهودي، وقُتلا في سنة ٤٣٩. ويؤسس محمد بن على الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر، ويدعو له على المنابر هناك، ونتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز به بأديس يعلن العيان في المغرب، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخط لبنى العباس، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين. وما توافي سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن أرسلان البساسيرى في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَضَى عليه وعلى فتنة أو دعوته السلطان طُغُرلُبك السلجوقي.

obeikandi.com

ويحدث في أيام المبستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين ديناراً وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع. وزاد طين هذا الغلاء بِلَّةً نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان، وكادت لا تبقى في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان. وبدأ من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استند المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر، فاستدعاه وفَّوض الأمور إليه، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشره، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه، وتلب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفي سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه، فلما اجتمع الأمراء والخواص بعد وفاة المستنصر حبهم في أن يخلقه أبنه أحمد، فبايعوه بالخلافة وجعلوه أن جعل الأفضل لقبه المستعلي. وأحدث ذلك انقساما بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلي كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالته هم الأئمة الحقيقيون، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته. ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم، فالبُهْرة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية. ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم، كما كان حال أبيه المستنصر مع دار الجمالي، وظل ذلك

حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاج ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري ولصلاة الجماعة في رمضان وصلاة العيدين.

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما أتضح في عهد الفاطميين بمصر، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم- مجنوناً أو مخبولاً، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرَّ بنا، وكأنما جِئ بالخلافة أرجوحة للصبي، وتوفي المستعلي سريعاً سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل أبنه الآمر مقامه وهو في الخامسة من عمره، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم، فالسلاجقة يستولون على كثير من مدن الشام وما تلبث طامَّة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى، ويتسلل بلدوين إلى الرُّها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكوَّنا بها إمارتهم الصليبية الثانية. ويأخذون المعرَّة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان. وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصري غائب عن حِماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لا تغنى شيئا. ويُقْتَلُ الأفضل سنة ٥١٥ ويُقْتل الخليفة الآمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجمال وكان هو وأبوه وجده سنين، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن

يسقطوا من أذنهم "حَيَّ على خير العمل" أحد شعارات الفاطميين وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر، غير أن أنصارها من حواشيها وشيعتها أسرعوا فقتلوه. ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولا لبث أن توفي فيخلفه ابنه الفائز وهو في الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفي سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو في الحادية عشرة من عمره. وكأن الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصبية والغلمان، ونظل نرى من كل خلفية وزراء، وغالباً يسقطون مقتولين. ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه، مُثْقِلا في أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف.

وتَفْسد في أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم في مصر فساداً شديداً. ومع ذلك لا تزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرًّا للرماد في العيون، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادي النيل. وبأخرة من أيام هذه الدولة يَقتتل ضرغام وشاوَر على الوزارة ويفزع شارون إلى البطل المغوار نر الدين صاحب حلب مستنجدًا به ويهجم حينئذ أملريك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبيس، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة. ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، ويمكنان لشاور في الوزارة، وسرعان ما يقلب ظهر المجن لشيركوه وجنوده. ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين، ويحاصرون شيركوه في بلبيس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس. ويخرج شيركوه من مصر، فيعظم بغى شاور

obeikandi.com

وطغيانه، فستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين، فيستنجد شاور بأملريك، وبلبِّيه، وتدور عليه الدوائر، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة، ويخرج أيضاً شيركوه وصلاح الدين إلى الشام، لا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تنِّيس ويعظم الخطب. ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين، فيرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبين وشاور جميعا. ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا، ويتوفي فيخلفه صلاح الدين، ويكتب إليه نور الدين مراراً يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين. وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين، فأقام الخطاب لبنى العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفي العاضد في يوم عاشوراء. وذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية.

obeikandl.com

(ب) الأيوبيون [٧] (صلاح الدين)

أتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوِين في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذي جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه، وقد هاجروا منها إلى بغداد، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكي، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق، بينما ظل شيركوه عند زنكي ولما توفي عمل مع ابنه نور الدن وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حميتها، وأتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين، فعين أيوب حاكما عليها، وأقطع شيركوه حمصا، وقربه منه. فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وتطورت الظروف كما مرَّ بنا، فقضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز. وجَدَّ في إصلاح أحوال مصر، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها، وبذَل الأموال، وملك قلوب الرجال، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر، إذا نراه يملح في

---

(٧) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقريزي والسلوك الجزء الأول ومرآة الزمان لسبط أبن الجوزي والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح الدين لابن شداد والفيح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامي للعماد الأصبهاني وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعو الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثاً فى العربية واللغات الأجنبية.

obeikandi.com

الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية، إلى ما يدور بخلده قائلاً عن نفسه: "إنه مفتقر إلى أن. . . يقلّد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدّم حقه ولا يُطَّرَح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة". ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحَّى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين.

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرقي. ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشى لقاءه، ومع ذلك كان يَعُدُّ نفسه تابعاً له، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين. وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حاصر الشوبك والكرك، ثم رفع الحصار، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة). وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنقاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك عل بقية الدعاة للفاطميين، ويذهب إليها ويستولى عليها. وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعمارة اليمنى الشاعر، وقُتل داعي الدعاة وصُلب عمارة.

وفي هذه السنة توفي نور الدن، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان في الحادة عشرة من عمره، وبدأ في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين. واعترف صلاح الدين بسلطانه، وأمر الدعاء في خطبة الجمعة وسكّ النقود باسمه. ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندى صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد

obeikandl.com

أشعلها مُوالٍ للفاطميين يسمى الكنز ودارت عليه الدوائر. ومرَّ بنا آنفًا أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر، ونراه يسيِّر عسكرًا إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكرًا في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين. وها هو مبكرًا قد أصبح يضم سلطانه جزءًا من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن. وجاءته الأخبار بأن نوار الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعاً مريراً مستعنيين بالصليبيين، فاستقر في نفسه أنه لابد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف، وقصد دمشق واستولى عليها، كما استولى على كثير من المدن الشامية. وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازي صاح الموصل ويُكْتَبُ له النصر، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يبقى له فيها حلب وحدها، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه. ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء ور ضخم حول القاهرة والفسطاط حماية لهما، ويُبْطل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ويعوض صاحب مكة عنها آلاف الأرادب فحمقا تفرَّق في أهل الحرمين، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ. ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجح كفته رجحانا واضحا، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها: ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل. ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل. وتسوِّل لرايجنالد نفسه أن يهاجم

obeikandl.com

مكة والمدينة من حصنة الكرّك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية، وتعقبه العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصري فتك بسفنه ورجاله.

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فيُعِدّ صلاح الدين جيشاً ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حَدَب، ويتجه نحو طبرية، وتلتقي إحدى سراياه في شرقي حيفا بجماعة من الداويَّة والإسْبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية. ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطِّين المشهورة في غربي طبرية، ويُمْحَقُ جيشهم محقان ويولى هاربًا ريموند صاحب طرابلس وريتالد صاحب صيداء، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت، ويقع في الأسر قادتهم وزعماؤهم جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهيو صاح جبيل شمالي بيروت وهمفرى صاحب تِبْنين إلى الجنوب الشرقي من صور وجيرار مقدم الداوية ورايجنالد صاحب الكرَك، وبلغ من كثرة القَتلى والأسرى أن قال أبو شامة في كتابه الروضتين: "من شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل". واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى، ولم يكن همه إلا رايجنالد صاحب الكرَك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة، ولما مثل بين يديه قبل له: ها أنا أنتصر منك لمحمد صلى الله عليه وسلم، وعرض عليه الإسلام، فلم يسلم، فسلَّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة، وطمأن بقية زعمائهم، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداويَّة والإسْبتارِيَّة لحبسهم أنفسهم على قتال

المسلمين. وغصَّت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبين المسترقين، وبلغ من كثرتهم أنْ كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير.

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي، فاستولى على عكسا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيداء. ولم يبق في الجنوب سوى الكرَك والشوبك، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين. وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في الأربع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونُكِّس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قبة الصخرة، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء، وأمر صلاح الدين أن يزَّين المسجد بالفُسَيْفِساء والرخام، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم. وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس أنطاكية. فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته، مثل صَفد والكرّك والشُّوبك وحصن كوكب. واستولت عساكره على بعض الحصن في لبنان وشمالي أنطاكية، كما استولت على اللاذقية.

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك، وحمل الصليب لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد (قلب الأسد) ملك إنجلترا، ومُنيت حملة فردريك في

obeikandl.com

أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح، ولم يبق منها إلا فلول، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها، وعاد فيليب إلى فرنسا، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين. واستولى على بعض البلاد الساحلية، وأضطر إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور على يافا، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجا عزلا من السلاح. وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يل أن لبَّ بها نداء ربه في فر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار. وسنقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعمارة والبيمارستانات والمدارس، وقد أشعار الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة. وكان محبا للعدل، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم، وكان رفيقا برعيته عطوفاً على أهل العبادة والصلاح.

وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكًا له (مديراً لدولته) وأعْطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمال الشام وميافارقين بديار بكر، وعاد صلاح الدين قبل وفاته لجعل للعادل الموصل وديار بكر والكَرَك والشوبك. وتوفي فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان بارا بالرعية عادلاً منصفا، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة، فرأى أن يأخذها منه، وجهز لذلك جيشا شار به إلى دمشق، غير أن

أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فالح بين الأخوة، وأنصرف العزيز عثمان إلى مصر، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيِّهما، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق، والتقيا بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صَرْخد سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى بن عمه العادل. وعاد إلى مصر يحكمها حكماً رشيدًا حتى توفي سنة ٥٩٥. وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا في العاشرة من عمره، فاستقدم الجند الأفضل ليبدر له الحكم، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيس، والتقى جيشاهما هناك، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر، فتبعه عمه العادل، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميافارقين وديار بكر، ولم يجد بدًا من القبول، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطة الجمعة للمنصور، وأمر بالدعاء له ولأبنه الكامل من بعده.

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطاناً لمصر، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل. ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين أولاده، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية. وأعطى ابنه موصى البلاد الشرقية وراء الشام وشركة فيها إلى وفاته أخوه الأوحد. وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق. وسيَّر السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فملكها. وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلها لواء صلاح الدين، وكان محنَّكا محسنا لتدبير الحكم وسياسة الملك، وكان فارسا مجاهداً بلى

بلاء حسنا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية، وكان تقيا وقد طهَّر ولاياته من الخمور وكل ما يجر إلى الفسق والإثم. وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه "تأسيس التقديس" وسيَّره إليه من خراسان. وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُرَدُّون على أعقابهم. ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفي العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائياً ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيش فسادًا، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة، وكان النيل في قمة فيضانه، فسلط المصريون مياهه عليهم، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين، وتلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يوما مشهودًا، تغنى به الشعراء طويلاً. ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن. ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل، فقال: "صاحب مكة وعبيدها واليمن وزَبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها". وما زال نجمه متألقاً حتى توفي سنة ٦٣٥.

وكان الكامل قد جعل انه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية، وكان في الثامنة عشرة من عمره، فلم ير الأمراء بدّا من توليته حسب رغبة أبيه، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها، ثم سار متجهاً إلى الديار المصرية، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه

obeikandi.com

سلطانا على مصر سنة ٦٣٧، وكان قد أكثر من شراء المماليك. وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجا وبنى بها مسجدًا وأتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية. وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان. فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلا وأسرا، واسترد دمشق، وعدت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة. وبينما كان في دمشق سنة ٩٤٧ مرض في أولها، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة، فصمم على لقائهم والمرض يثقل عليه وحُمل إلى مصر في محفَّة، وزحف بجيشه مسرعا إلى تلك المدينة ولم يمهله المرض بها،، فمات ميتة الشهداء مجاهداً في سبيل الله. وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرقي الشام، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مزقهم شر ممزق، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنورة، فقتل منهم بضعة آلاف واسر أكثر من عشرين ألفا بينهم لويس التاسع، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم. ويسجن لويس في المنصورة بدار ان لقمان كاتب الإنشاء. ومن ج

أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة ليبية وُجِّهت إلى مصر باغتيال مماليك أبيه له، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فافتدى نفسه وفلول حملته بأموال وفيرة، وعاد إلى بلاده خاسئا ذليلاً.

واجتمع رأى المماليك على توليه شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب واعتقها وتزوجها، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير، فاتفق المماليك على أن تلي شئون السلطنة، وتم أمرها، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها، فانقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقرض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوما، وأحسنت بحرج الموقف، فرأت التزوج ن عز الدين أيبك أتباك العسكر وأن تحول مقالي السلطنة إليه. وحاول- خداعا للأيوبيين في الشام- أن يشرك معه في الحكم صبياً أيوبياً هو الملك الأشرف موسى، وكان في السادسة من عمره، ولكنه عاد فتخلص منه. وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزيحوهم عن صدر الشام، ويردوهم عن ثراها وحِماها إلى البحر المتوسط وما وراءه.

obeikandl.com

٣

المماليك- العثمانيون:

(أ) المماليك[٨]:

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء المماليك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب، وكأن الأيوبيين لم يتعظوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين. وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المماليك على ولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان- كما مر بنا آنفا- إلى عز الدين أيبك قائدهم. وظل المماليك من هذا التاريخ وهو سنة ٩٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني

---

(٨) انظر في المماليك السلوك والخطط للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابق وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى ومجالس السلطان الغوري وآخره المماليك الابن زنبل وتشريف الأيام والعصور فى سيرة المماليك لابن زنبل وتشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنور (طبع القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطي طبع فينا) والدرر الكامنة فى أعيان المائدة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى ودولة الظاهر ودولة بنى قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المماليكى لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها.

obeikandl.com

سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين، تسمى أولاهما المماليك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب. وكانوا يستكثرون من شراء المماليك وينزلونهم في أبراج القلعة حيث يربّون تربية عسكرية جيدة، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المماليك البرجية، وهم المجموعة الثانية إلى خلفت المماليك البحرية في حكم مصر من سنة ٧٨٤.

تولى عز الدين أيبك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له، وأخذوا في حربه، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن، غير أن شجرة الدر زوجته شكّت في إخلاصه لها، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولاً ولم تلبث أن لقيت نفس المصير، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور علي بن أبيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قطز أتابكًا لهَ فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم. وكان التتار قد استولوا في العام الساق على بغداد ونكلوا بها تنكيلاً فظيعاً ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعَهِد قُطز إلى مملوك عظيم من مماليك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بَيْسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفي بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت. والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولين وجوههم إلى

الشمال لا يلوون، تاركين وراءهم مالا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى. وتُعَدُّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ، إذ صدَّت التتار نهائياً عن مصر والشام، وقد ثبتت أقدام المماليك لا في حكم مصر وحدها، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم، ويقتسم شرفها بحق قطز وبيبرس. ولبيبرس فيها الشرف الأكبر، إذ كان على طليعة الجيش، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم. حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلب أن طلبت منه نيابة حلب، ولكن قطز لقصر نظر بخل عليه بها، فكان طبيعياً أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر، وواتته الفرصة فقتله، وانتخبه أمراء المماليك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية، وتقلب باسم الملك الظاهر.

وكان بيبرس سلطاناً حازما عالي الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير املك وسياسته، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه، وانتهز ظهور أمير عباس بدمشق فر من التتار فاستدعاه إلى القاهرة، حتى إذا تأكد نسبه إلى بنى العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة، ولم يلبث هذه الخليفة العباسي أن قلده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه. وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه. وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفي كامل أتاتورك كما هو معروف. وأتاح وجود هذه

obeikandi.com

الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه المماليك أن يعدو أنفسهم حماة الخلافة والإسلام، وأفادوا من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محمل إلى مكة سنوياً يحمل الكسوة الشريفة، وهو تقليد لا يزال قائماً إلى اليوم. وعُنى بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عنى بالبريد، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام.

وظل طوال حكمه يُعِدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب. أما الصليبيون فاستولى على كثير من قالعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصَفد وتِبْنين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف. ولم يلبث أن أستولي على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس. وما زال الظاهر بيبرس ذاهباً آيبا من الفرات لحرب التتار وسحقهم، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية، وفتح دنقلة كرسي بلاد النوبة، ودانت له بالطاعة. ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة: المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضيان وظل العمل بذلك جارياً في عصر المماليك، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، وكان يوما مشهودًا، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية. وشيد مسجدًا كبيراً بالقاهرة لا تزال أطلاله قائمة إلى اليوم. وهو يُعَد من أبطال مصر والعرب العظام

أمثال صلاح الدين، وبعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة، وألفت حولها قصة مشهورة، ومازالت الأجيال تزيد فيها إيهاناً بفروسيته الخارقة. وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها، وتولى بعده انه الملك السعيد، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة، وجعلوا قلاوون أتابكًا له.

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة، فاستخلص الملك لنفسه، وتلقب باسم السلطان المنصور، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزما وعزما وتدبيراً وبأسا، وقد أتبع سياسة الظاهر بيبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مراراً وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهًرا بالسيف، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل جبيل وبيروت. وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة، فذهب إليها بعض قواده ورم ما بها من شغب. وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام، وخلفه ابنه الأشرف خليل، وكان شجاعا وبطلا مغوارًا، فمم على طرد الصليبيين من الشام، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابق عشر من جمادى الآخر سنة ٥٨٧ وقتلها المسلمين بها، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها. وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ

السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخر، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة.

والعجب أن يكافئ المماليك السلطان خليلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة، فيتآمروا على قتله، وتنجح مؤامراتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره، ويعين كَتْبَغا نائبا له، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد قلاوون سنة ٦٩٨. وتنشب حروب بينه وبين تتار العراق، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فساداً. ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا، وتوالى فلولهم الأدباء نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء. ويأخذ كبار المماليك في التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكَرَك جنوبي الأردن، ويرسل إليهم بكتاب يلن فيه تنازله عن الحكم، ويتفق المماليك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩. وكان المصريون يحبونه حباً شديدًا، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات. وبلغت الدولة في عهد أوج مجدها، فقد قضى أبوه وأخوه، كما قدمنا، على الصليبيين نهائياً، ولم تبق منهم باقية، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية

obeikandi.com

على مصر انتصاراً حاسماً، وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام.

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر أو يعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثياً. ويكفي أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار، وكان منهم من يعش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصلاح إسماعيل والسلطان شعبان، ومثل السلطان زين الدين، وكان في الحادثة عشر من عمره، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن في عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة. وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما، وكثير منهم كان صبيًّا، كما ذكرنا، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فسادًا شديدًا. وفي نفس ٧٦٦ سوَّلت لحكام قبرص بطرس لوزيجنان شياطينه أن يغير على الإسكندرية، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام، ثم والى بمن معه هاربًا حين علم بافتراق الجيش المملوكي.

وطبيعي وقد فسد حكم آل قلاوون فسادًا لإصلاح له بعده، أن يحاول المماليك التخلص من هذا الحكم، وكانت مجموعة المماليك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلوا في سماء مصر، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المماليك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية، وكان أديبًا يهتم بمجالس الأدب والعلم، وخلفته طائفة من

obeikandi.com

المماليك البرجية مثل شيخ وبرسباى وجقمق وقايتباى والغوري. وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهى سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه. وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب. ويهب بأخر من حكم برقوق إعصار تتاري جديدة، يقوده تيمورلنك، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكم هناك برقوق، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حينًا، فيلعن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغول، ويكتب له برقوق تقليداً أو مرسوماً بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد. وفي هذه الأثناء يتوفي برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام، ويستولى على حماة وحمص وبعلبك، وكان مماليك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفظائع ما صوره ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور، مما أضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح معه، وبارح تيمور الشام سريعًا إلى آيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربه قاصمة، وعادة إلى بلاده وسران ما توفي وتمزقت دولته بين ورثته، وكفي الله المماليك وديار مصر والشام شره وخطره.

ويحتدم التنافس بين أمراء المماليك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامعة المؤيدىّ، ويقال إنه لم يُبْنَ في الإسلام أكثر زخرفة منه ومن الجامع الأموي بدمشق،وتوفي سنة ٨٢٤. وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة

واحدة وثمانية أشهر، فكان طبيعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء، ويتوالى سلطانان، ويخلفهما السلطان بَرْسباي سنة ٨٢٥ ومرَّ بنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية، فصمم برسباي على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات، استطاعت ثالثتها أن تستولي عليها من جميع أنحائها، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين ويحاكم قبرص مقيدًا في الأدغال، وقبَّل الأرض بين يدي بَرْسباى، وتَعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنوياً عشرين ألف دينار جزية. وخلف برسباى أبنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله، وتوالى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدًا حربيًّا كمجد برسباى، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس، ولكنها لم توفق جميعًا إلى الاستيلاء عليها، ويتوفي سنة ٨٥٧. وتكثر المنافسات والمنازعات بين أمراء المماليك البرجية. ويستخلص الحكم لنفسه قايتباي سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأي شجاعا ساهرًا على دولته المترامية الأطراف، متنقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة، ويبدو أن كان يعنف في جميع الأموال والضرائب، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت. وظل حاكما للدولة تسعة وعشرين عاما إذ توفي سنة ٩٠١. وخلفه أربعة سلاطين حكموا مددًا قصيرة، وأختار أمراء المماليك بعدهم قانصوه الغوري سنة ٩٠٦، وهو من خيرة سلاطين المماليك البرجية، وكان شاعرًا واشتهر بمجالسه الأدبية، وكان طاعناً في السن، بينما كان يتراءى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمماليك بالخطر

الجسيم، أولها خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق راس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين، وضياع ما كانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوربا وثغور البحر المتوسط. وأخذ البرتغاليون يناوشون العرب في جنوبي الجزيرة العربية، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات، ووقف الغوري معهم وانتصروا في موقعه بحرية عليهم. غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزء الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها، فارسل إليهم سريعاً قانصوه الغوري نجده طردت البرتغاليين من هذه الإنحاء، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسه لها.

وتهدَّد مصر خطرٌ أكثر جسامة، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوي بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوي سنة ٩٢٠. وعرف أن قانصوه الغوري كان قد عقد معه حلفا، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائباً عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى به إلى شمالي سوريا لرد العدوان، إن حدث، في حينه، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئاً، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالي حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه، وقتل وهو يلوذ بالفرار، ولم تكن تنقص جيش

obeikandi.com

المماليك الشجاعة، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية، فكان طبيعياً أن تكون لهم الغلبة، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم، ودخل دمشق. ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمماليك مصر ويكتفي بمملكتهم في آسيا، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باي يعرض عليه أن يترك مصر له وللمماليك على أن يعترفوا له بالسيدة، فيخطب له، وتضرب السكة باسمه. ولكن طومان باي أبى ذلك واخذ يستعد لحربه، وأحسَّ بتخاذل المماليك من حوله، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه على القاهرة، والتقى بجيش طومان باي بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة، وفر طومان باي. ودخل سليم الأول القاهرة في اليوم التالي وكان أول يوم جمعة من شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فُدعى له في الخطبة، وسلم قصر طومان باي بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة، ولم يلبس أن سلم غدرا إليهم، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة وبذلك أنتهي عصر المماليك لمصر وتقوضت دولتهم.

obeikandl.com

(ب) العثمانيون [٩] :

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية اشره، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضًا مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المماليك حتى الرخام كانوا ينزعونه. وكأنما وضع سليم خطة أن يَحْرم مصر من كل ما كان بها تراث فني غير ما حمله من كتب لا تزال تزهر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم. وهكذا ردت مصر من علمائها وفنانيها وتراها الفكري والفني، وعاشت حقَبًا سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أو شيئاً من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة، ويقال إنه تقلدها في مصر، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية.

وجعل سليم على مصر نائباً له أول واليا، كان يلقب بالباشا، ويتخذ القلعة مقرًّا له طوال حكم العثمانيين لمصر، ولم ينفرد بالحكم، فقد أشرك معه سليم- وظل ذلك سارياً

---

(٩) انظر في العثمانيون آخرة المماليك لابن زنبل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول للإسحاقي وتاريخ الجبرتى والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى والحملة الفرنسية وظهور محمد على لمحمد فؤاد شكري والجزء الأول من تاريخ الحركة القومية فى مصر وظهور محمد على لعبد الرحمن الرافعي ومقدمة تايخ العرب الحديث لعبد الكري غرابية والخطط التوفيقية لعلى مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١/ ١٤٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٤٨.

obeikandl.com

بعده- قادة الجند العثمانيين لمصر، ولم ينفرد بالحكم، فقد أشرك معه سليم- وظل ذلك سارياً بعده- قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر، وأيضًا أشر معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه، وقد اختارهم سليم جميعًا من المماليك، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم، للإشراف على شئون الأقاليم. ولم يلبث أن توفي سليم، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وإلى له الإشراف العام على شئونها المختلفة، ومعه ديوانان: ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار (مدير الخزانة) والروزنامجى (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضي القضاة أو رئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المماليك أو كبيرهم. وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتخدا (نائب الوالي) والدفتردار والروزنامجى ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية. وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالي، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلَّغ إلى الوالي ويعمل على تنفيذها جميعاً.

وظل المماليك- منذ سليم- يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطتي الجند والوالي، إذ جُعلوا حكاما للأقاليم، وكان كل منهم يسمى سنجقا: اسما تركيا. كان في الأصل يعنى البريق، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسمي باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية، وأُعْطوه أيضاً لقب بك، فكان هناك الوالي الباشا والسناجقة المماليك البكوات، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية، وكان لهم نواب يسمون الكُشَّاف جمع كاشف. وكان يتبع الكشافَ الملتزمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين

فهم يعتصرونهم اعتصارًا دون شفقة أو رحمة، والفلاحون يتصَّببون عرقا لكي ينعم الملتزم والكاشف والسنجق، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويرهقونهم من أمرهم عسرا حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة. وبذلك كسدت الزراعة، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق راس الرجاء الصلاح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه. وزاد الأمور سوءاً أن العثمانيين أتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالي في مصر إلا مدة قليلة قد تكون عامنا وقد تكون أقل من عام، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار، وكأنهم كانوا يجيئون كانوا ليدخروا لأنفسهم شيئاً من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا في أي إصلاح، ويكفي أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجئ نابليون مائة وخمسون واليا عثمانياً.

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثاني عشر الهجري أو السابع عشر الميلادي ضعفًا شديدًا فأخذ سلطان السناجق المماليك يَقْوَى، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشئون الإدارية والمالية في البلاد، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم في القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى، حتى غدا مناظراً أو مماثلة للوالي العثماني.

وبلغ من سلطان شي البدل ومماليكه أنه كان أحيانا يعزلون الولاة، وربما جاءهم وال لا يرضونه، فكانوا يمتنعون عن تهنئه، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته، حينئذ لا يجد بدلا من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المماليك في الاستقلال بمصر، وتوالى على بك الكبير مشيخة البلد،

وصمم على الاستقلال، ولم يلبث أن خلع الوالي التركي سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة باسمه، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة: سلطان مصر وخاقان البحرين. وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها. غير أن الباب العالي العثماني لم لبث أن استغواه بما وعده به من الولاة على مصر فانقلبت على سلطانه على بك الكبيرة، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميدانها على بلك سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م. وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية: أن يردها استقلالها وحريتها، وظل شيخا للبلد، يولى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفي بعد سنتين في عام ١١٨٩هـ. وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك، وتوفي فعادت إليهما ولإبراهيم الرياسة، وأصبح شيخ للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م. وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهادًا عنيفًا مريرًا ثلاث سنوات، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجلس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان، وجعل لها النظر في الضرائب وشئون الحكم.

لم يَغُرّ هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفذ مطامعه الاستعمارية، وما زالوا يقامون الحملة مقاومة باسلة، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا. وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث، إذ أذكت في المصريين الشعور القوى. فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم

obeikandl.com

العثماني رأوا أن من واجبهم التخلف من نيرهم الظالم البغـيض وأن يختـاروا حـاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٥م وبدءوا بقوةٍ نهضتهم الحديثة.

obeikandl.com

٤

المجتمع[١٠]:

مصر – كما وصفها الذكر الحكيم – جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجنباتها سكانا من القط ومن نزل بها من العرب، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنهم فحسب، بل أيضاً في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصري. وكانت تتوزعه – كغيره من الشعوب العربية – ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا. وتشمل الطبقة الأولى الوالي وصاحب الخراج والقاضي وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك.

---

(١٠) انظر فى المجتمع الولاة والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسيمه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وناصر خسرو والإشرة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالى فى ابن خلكان والخطط للمقريزيى والجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تغريبردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن مماتى وسيرة صلاح الدين لابن شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم ومبيد النقم للسبكى والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة والمجتمع المصري فى عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحاضرة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر فى العصور الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان.

obeikandl.com

والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الـزراع أصـحاب الملكيـات الـصغيرة والقائمين على الصناعات. أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار. وبجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطـة وأرمينيـة وثغور البحر المتوسط، وكان كثير منه يحَّرر ويصل إلى أرفع المناصب على نحـو مـا هـو معروف عن فاتك الرومي وكافور الحبشيّ القائدين في زمن الإخشيد. وكان هناك أهل الذمة من الأقباط.

ويمد النيل مصر من قديم برخاء لا مقطوع ولا ممنوع، ومعـروف أن أرضـها قبيـل الفتح العربي كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين، وقـد تـرك العـرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين مالهم من الأراضي على أن يـؤدوا عنهـا الخـراج أو كـما نقول الآن الضرائب، وبالمثل كان يؤديها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكـل فالح لها أو زارع. وتُرك للقبط الإشراف المالي على شئون الخـراج أو ضرائـب الأرض، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القـرن الحـاضر. وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية، وهى تـتراوح بـين دينـار ودينـارين سنوياً، يؤديها القادر بمقدار قدرتـه، ولم يكـن يؤديهـا راهـب ولا شـيخ ولا امـرأة ولا صبى، وهى في واقعها ضريبة دافع لأنهم لم يكونوا يشتركون في الحرب.

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات، ومن أهمها صـناعة القـراطيس من ورق البردي، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القـرن الثـاني الهجـري حين نقلت في عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشى لا مصنع ببغداد. وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب، وكـان النـساء

obeikandi.com

والغلمان في الوجه البحري يشتركون فيها، واشتهرت بها الدن الشمالية: دمياط وشطا وتنيس ودبيق والإسكندرية، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم، وكان ثمن الثوب الدبيقي مائة دينار وقد يبلغ مائتين، واشتهرت تنيس بثوب كانت تصنعه لخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين، وكان يقدر بألف دينار. وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد، وكانت تصنع الحصر في أمكنة كثيرة، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود. وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشبَّ والنطرون، وأيضاً على بناء السفن. وكانت التجارة الرائجة، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود.

ومما يدل بوضوح على رخاء مصر في عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزي وقع في أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها "طاء النمل" وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية، فتعرضت لها تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته من يرافقه من جنده، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمه، فلما أصبح جاءته ومعها عشرة وصائف، مع كل وصيفة طبق، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب، فشكرها وأمرها برده، فأبت إباء شديدا، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد، مما يدل على أنه ربحها من عام، فقال: هذا والله أعجب. وتوسلت إليه أن يقبلها، فتمنع وقال لها: رُدِّى مالك بارك الله لك فيه، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من

obeikandl.com

الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا الذهب شيء كثير. فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها مائتي فدان بغير خراج. ومارية إما هي إقطاعية واحدة وكان وزراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب، فإن الدولة كانت قد دابت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصري، ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضي موضع الزهد والتقشف إذ يذكر الكندي في كتابه "الولاة والقضاة" أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون في سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم. وحقا كان يحدث أحيانا قحط أو أوبئة أو تذمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التي يفرضها بعض عمال الخراج، حتى ليأخذ ذلك في الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة، ولكن هذا كله سرعان ما يزول، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء، فبينما مصر ت كما يقول عمرو بن العاصر في رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب- لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء.

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء في مصر، فهي تموج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب المسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه. ويبدو أن المساكن بها والعرف والحوانيت كانت تؤجر ويؤجر معها الأثاث. وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهي من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل، ويروى الكندي أن الوالي عليها يزيد بن عبد الله منع في حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت

obeikandi.com

سنة ٢٤٩. وكان الناس يحارشون أحياناً بين الكباش والكلاب. ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر، ولابد أنها كانت قليلة، ويذكر ابن سعيد- إن صح ما يذكره- أن محمد بن أبى الليث الخوارزمي قاضي المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء. وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضي لعهد الرشيد المسمى بالعمري كان يسمع غناءها، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف في لحنه. وكان الناس يخرجون للنزهة في جزيرة الروضة أمام الفسطاط على شاطئ النيل. وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة يفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسي لأول الربيع.

ويتولى مصر- كما مر بنا- أحمد بن طولون مكوناً بها الدولة الطولونية، وتُلْقى مصر في حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها، وكان حازما بعيد النظر رءوفا بالرعية، فألقى عن كواهلها كثير من الضرائب التي كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج، وكان قد زاد عليها الضرائب، وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كل. واستقل بمصر. وفتحت له كنوزها، وأغدقت عليه من طيباتها، فكون جيشه الضخم، وأخذ في بناء قصره خارج الفسطاط وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضا لقواده. وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران. وبنى جامعه الكبير وانفق عليه مائة وعشرين ألفا من الدنانير، وبنى بيمارستانا وانفق عليه ستين ألف دينار، وجعل أمام قصره ميدانا كبيرًا للعب كرة

الصولجان، أنفق عليه خمسين ألف دينار. وكان ينفق على مطبخه في كل يوم ألف دينار، وكان يُعْمَلُ سماط عظيم، وينادّي: من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون. وكان ما يدخل إلى خزائنه في كل سنة بعد نفقته مليون دينار، وخلف في خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير.

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة، وأخذ خمارويه يغرق إلى أذنيه في النعيم، فزاد في عمارة قصر أبيه، وجعل الميدان الذي أمام بستانا وزرع يه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عيونه الماء وتنحدر إلى فساقي يفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان، وسرح فيه طورا حسنة الصوت وطواويس مختلفة. وجعل لنفسه مجلسا سماه دار الذهب طلا حيطانه بالذهب واللازود وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياه ومغنياته وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة. وجُعلت في هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزئبق طولها خمسين ذراعا وكذلك عرضها، كان يُرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق. وأتخذ خمارويه بيوتا للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل. وكانت حلبات السابق في أيامه تقوم مقام الأعياد، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام. ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثرا جهاز ابنته قَطْر النَّدَى حين زوجها الخليفة العباسي المعتضد، وكان من جملته دكة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشكبة بها أقراط في كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة، وكان في الجهاز مائة هاون من الذهب، وبنى خمارويه- كما مرَّ بنا- قصر في كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد.

obeikandi.com

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثرا واسعاً أن أبا بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج ووزير خمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعمائة ألف دينار في كل سنة سوى ما كان يؤديه من الضرائب، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار وكانت مصر تتلف بالأعياد احتفالات كبيرة: الإسلامية منها والقبطية، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا. ولذلك بكتْ دولتهم بدموع غزار. وتخلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة، وسرعان ما يتولاها الإخشيد، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها، وبفضل ثرائها استطاع أن يعد لنفسه جيشا ضخما مكوناً من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء، وما زال سعده بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثور وخُطب له بالحجاز واليمن. وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدي. وكانت مصر تنعم بثرائها، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه "كان إذا توفي قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير" ويقول ابن سعيد أيضاً إنه لما توفي التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار. وكان سباق الخيل في أيامه- كما كان في أيام خمارويه- يقوم مقاوم الأعياد. وكانت لوزيره مدير الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنْزابة دار للأفاعي والحيات والعقارب لها قيم وحاو من الحواة ومعه مستخدمون.

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنيين من الرجال والنساء. وكان يحاكى ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عين الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية واحتفالات كبيرة، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية. وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ حد هذه أعياد وهو عيد الغطاس المسيحي، ويكون عادة ليلا، ويقول إن الإخشيد كان يقصره في جزيرة الروضة، وأمر فأسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة آلف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع. ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا الآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف. ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كان بالفسطاط بعض دور للقمار.

وتُلْقِى مصر بكنوزها للفاطميين، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل، وتدخل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم. وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي. وكانت المكوس تُفْرض على كل شيء حتى قال المقريزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء. ويذكر القدسي أنه كان يُجْبَى من تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب، ويقول المقريزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في ثلاث سنوات مليون دينار ومليوني درهم، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من الثياب في شطا

obeikandi.com

ودمياط ودبيق والإسكندرية، ويقال إنه جُبى من تنس ودمياط الأشمونين في يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار. ومما كانت تجبى عليه المكوس الشَّبُّ والنَّطْرون. وكانت تُفْرض مكوس على الحمامات، وكانت تعد بالمئات في الفسطاط والقاهرة، وعلى الحوانيت، ويذكر ناصر خسروا أنها كانت تبلغ فيهما نحو عشرين ألفا، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير شهريا. ويجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالي التي يدفعها أهل الذمة. وكانت- كما يقول ابن مماتي في كتابه قوانين الدواوين- تُفْرَضُ مكوس على المتاجر الصادرة والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العُروض أو البضائع. وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في القرن الثاني- لأول مرة- بهذا الصنيع. وكل ذلك كان يصب في خزائن الدولة الفاطمية، حتى لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربي، وفيها يقول المقدسي: "هي الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى. .. أحد جناحي الدنيا، ومفاخرة لا تحصى، مصره (يريد الفسطاط) قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار، وبخيراته تغْمَرُ الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج، وبّره يعم الشرق والغرب، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره في الخافقين، حسبك أن الشام- على جلالتها- رُسْتاقه (قُراه) والحجاز- مع أهلها- عياله".

وطبيعي أن تتضخم- مع هذا الثراء الهائل في مصر- الطبقة العليا: طبقة الأسرة الفاطمية ووزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعييها وتجارها. وقد أكثر الفاطميون من الإقطاع للوزراء والقواد، وكان عندهم نظامان

obeikandl.com

للإقطاع: إقطاع تمليك يورَث وإقطاع استغلال يَمْنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث. ويُرْوَى أن يعقوب بن كلس أول وزرائهم بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار، وقالوا إنه لما توفي ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار. وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن السادس الهجري الأفضل بن بدر الجمالي ترك ستمائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دارهم خمسة وسبعين ألف وثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب، ودواه ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بِلَوْنٍ من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنس ودمياط، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله وكأنما حول كل أموال مصر في عهده إلى خزائنه، وأي خزائن إن أكبر مليونير أمريكي في عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه. وحتما كانت تحدث بمصر أحياناً مجاعات بسبب نقص النيل والقحط، كما مر بنا في عهد المستنصر، وقد تحدث أوبئة، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائماً وتعود سريعاً على رخائها الذي أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء.

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف، ويكون لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمي، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد بخطر ببال، حتى ليقول المقريزي: "خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفي به ملك الأكاسرة

obeikandl.com

ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله المالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق في الآخرة".

ولعل في كل ذلك ما يدل على الثراء واترف والبذخ في أيام الدولة الفاطمية، وزخر حديث المقريزي وغيره بملابس الخلفاء وعمائمهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة في أثاثهم وأواني طعامهم وفي قصورهم وبساتينها وأروقتها وأفنيتها وأعدمتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان، مما بهر ناصر خسروا في القرن الخامس، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور في نهاية القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار في سطوح منازلهم حتى لترى كأنها حدائق، ومما يدل على سعة الرخاء لعهده ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدر، تؤجر كل قدر منها بدرهم. ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر وكان العائد منها على الصناع عظيماً وبالمثل كانت التجارة وأيضاً الزراعة. وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصر الآخر، وتلقانا في النصوص كلمات الخولي والسائس والحَّراث والجنايني والأجير والأعوان وعاصر النبيذ.

ويبدو أن صر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر، حتى لنجد أبن الطحان يؤلف في الغناء والمغنين كتابا. وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يعيشان في الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم- وخاصة إيران- به.

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية، وهى- كما يقول المقريزي- موسم رأس السنة، ويوم عاشوراء، ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم ومولد على، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخلفية الحاضر، وليلة أول رجب وليلة نصفه، وليلة أول شعبان وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان أو غُرَّة رمضان، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد الأضحى، وعيد الغدير (الذي يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب)، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسي كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء. ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس، وعيد الزيتونة وهو عيد أحد الشعانين، وكانت الكنائس تزين فيه بأغان الزيتون وقلوب النخل. وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة، إذ يقول المقريزي: "كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات" والخيل هو لعبة خال الظلم المضحكة التي تحولت في الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة، ولعل التماثيل ى نفس أشباح الأراجوز، أما السماجات فأشخاص يتراءون في صور منكرة مضحكة، وقد يحاكى نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات في العربية وغيرها قديمة. وكانوا يتسلون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة. وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهي كان الصليبيون- كما مر بنا- قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس

obeikandl.com

وأنطاكية وأكثر ثغورها، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابهما من فساد شديد في أداة الحكم.

وانقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية، وفي عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة، وسرعان ما أخذت تباشير النصر على الصليبيين تلوح، بل سران ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين، وتهاوت معها بيت المقدس، ورُدَّت الديار إلى أصحابها إلا قليل. وكان المفروض أن يثقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه، غر أن الذي حدث كان عكس ذلك تمامًا، فقد خفف الضرائب على المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها، حتى ليقول المقريزي إنه أسقط منها ما يزيد من مليوني دينار ومليوني أردب وبالمثل أسقط ن أهل لذمة ضرائب كثيرة حتى قلوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار. ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئاً من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالي والضرائب ينفق في الحرب دون أن يختزن منه أي شيء لنفسه ما ذكره ابن تري بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد في سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرياً ودينارًا واحدا ذهباً صُوريًّا، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارًا ولا بستانا ولا ضَيْعة ولا مزرعة. ويروى أبن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته في الرعية، ويقول إنه وهب لصياد دينارين، وتعذر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير. وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة، وكانوا دائماً كأنهما مرابطون لحرب الصليبيين، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد

لويس التاسع وخلفه ابنه توران شاه- كما مر بنا في غير هذا الموضع- فأنزل به هزيمة ساحقة، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم.

وعُنِي صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات، وظل خلفاؤه يعنون بالعمران، مما أنعش الصناعات في القاهرة، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتين وغيرها. وقد عنى الأيوبيون بالجارة، وعقدوا- كما يقول بروكلمان- سلسلة من لاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الري عناية فائقة. ويصف ابن جبير في رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التي لا تحصى كثرة، ويقول إن العمارة فيها متصلة، وفيها الأسواق وجميع المرافق. ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى صلى بها الإمام في مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة. ويشيد بالمارستان الذي بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للناس ومقاصيرَ عليها نوافذ من حديد اتُّخذت محابس للمجانين، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى في عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم، وحقا لم يُعْنَ الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعني بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقريزي نحو ثلاثين عيدا، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تمد فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقية من الأعياد النصرانية. وطبيعي أن يُشْغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبين وما كانت تستنفذ منهم من أموال

ضخمة. ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وأن خفت حدتها، ويقول ابن تغري بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهر جميع ولاياته- في مصر وغير مصر- من الخمور والخواطيء والقمار. وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق امرح نفوسهم، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين، وكان قد عين قراقوش محافظة للقاهرة وأمره ببناء القلعة، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء. وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق، وسُمِّي في تركيا قراقوز، وعاد لينا باسم أراجوز وبعروضه المضحكة.

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمَّته إلى أيدي سلاطين المماليك، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار، وتنحسر موجتهم إلى العراق وما وراءه، ويَطْردون نهائياً الصليبيين من ديار الشام. ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى، ويتوفي فتتمزق دولته. وتُعَدّ أيام المماليك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية، كما مر بنا، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فارين من وجوه التتار، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلماؤها، كما وفد من قبلُ علماء صقلية وأدباؤها حين أحتلها النورمان. وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلَ العروبة والإسلام. وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المماليك: طبقة الحكام، وطبقة وسطى من

obeikandl.com

كبار التجار، وطبقة دنياه من الفلاحين والعامة. وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب: في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل، على نحو ما هو معروف عن المماليك البحرية والبُرْجية، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية، ويُعدون لهم أساتذة يعلمونهم شيئاً من الحساب وشيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي، حتى إذا شَبُّوا توزعهم أمراء المماليك مكونين منهم فرقا عسكرية. وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات، وكانت أحياناً إقطاعات تمليك كما مر بنا في العصر الفاطمي فهي توريث، وأحياناً كانت إقطاعات استغلال. وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المماليك تكاثراً شديداً، حتى اضطر بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود.

وبذلك كانت من أهم ما يميز عصر لمماليك أنه عصر إقطاع، وكان الفلاح لا يزايل إقطاعه وكأنه- حياته- قِنَّ كما يقول المقريزي. ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح، ويقول: من حق الفلاح أن يكون حرا لايد لآدمي عليه. وكأنما حُرم أصحاب الأرض الحقيقيون من تلك الأرض، وتملكها المماليك الأرقاء، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم- كما يقول ابن إياس- ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية. ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان- كما أسلفنا- مستمرا في هذه الحقب، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمماليك نصفه الآخر، ويبدو أن أصحاب الإقطاعيات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين. على أن

تسلط الممالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور وبنظام الري وبالثورة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية. وكانت الدولة تشترى كثيراً من المحاصيل وتُعيد توزيعها على تجار التجزئة، حتى تمنع المضاربات التجارية.

وكانت الصناعة مزدهرة، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يخلعها السلاطين على الأمراء وكابر رجال الدولة. وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلي والمعادن والزجاج الملون. وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل. وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات، ومما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية وكانت التجارة بالمثل مزدهرة، بل كانت أكثر ازدهاراً ونشاطا، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشطر الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وبعبارة أخرى بين الهد وشرقي آسيا وبي أوربا، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره. وكانت الدولة تحصل عل دخل ضخم من مكوس التجارة، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودى جاما طريق راس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها.

obeikandl.com

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء، الذي كانت تحياه هذه الدولة، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجولي، وأيضاً فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التي اشرنا إليها في غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة، بحيث كانت مصدراً أساسياً من مصادر دخل الدولة، وكانت تُضَمُّ إليها ضميمة أخرى من مصادرة أموال التجار أحياناً وفاء بما قد تتطلبه الحروب، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها. وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلاً، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشامخة الرائعة.

وعادت إلى مصر في أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة في العصر الفاطمي: الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية. وأضاف المماليك عيد محمل الحج. وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة في هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساخر والسماجات. واتسعت فنون اللهو والتسلية، وكان الناس يخرجون للنزهة في أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديما، ومثل بولاق وجزيرة الروضة. وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتنزه بها في النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات، واشتهر بينهم كثيرون، ويذكر ابن حجر منهم في كتابه "الدرر الكامنة" عبد العزيز الحفني أعجوبة زمانه في فن الغناء و"خوبي" أعجوبة أيامها في الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون. ويكر السخاوي منهم في كتابه "الضوء اللامع" خديجة الرحابية. وكان هناك من يتعاطون الخمر أحياناً وكذلك الحشيش، وقد يكثر من يتورطون في تعاطيهما فيضطر السلطان

obeikandi.com

إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر في كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس. ومن ملاهيهم حينئذ النرد والشطرنج وتطيير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق. وارتقى حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها في عهد الظاهر بيبرس، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك في المتفرجين. ويقول السخاوي إنه كان من ملاهيهم سماع سيرة عنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالي والظاهر بيبرس. وكأنما كُتب على الشعب المصري أن يؤدى ثمنًا باهظاً لمرحه ولهوه في زمن المماليك، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولوجان إلى ولاية عثمانية، وليس ذلك فحسب، فقد جردها فاتحها من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها. وتراثها الفني وكل ما كان بها من تحف نفيسة، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين صناعة. وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه، لم تكن كارثة سياسية فحسب، بل كانت أيضاً كارثة علمية وفنية وصناعية، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير، كما يقول ابن إياس، وخلع عليه قفطانا مذهباً، وأصطحبه معه إلى القسطنطينية. وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة. وقد ضاعت منها حينئذ موردها الصناعية، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية، ولم يبق لها إلا الزراعة، والعثمانيون والمماليك يعتصرون خيراتها وطيباتها من الرزق، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والضنك وشظف الحياة. وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب "هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف" ليوسف الشربيني وهى قصيدة عامية هزيلة ومثلها شرحها، وهما

يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرهق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم، ظلم جر أفظع ما يمكن من الجهل والبؤس، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القَريش (الخالي من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة. وهو يسوف ذلك في أسلوب فكه يحمل كثير من السموم.

obeikandl.com

٥

التشيع: الدعوة[١١] الفاطمية الإسماعيلية:

مَّر بنا- في غير هذا الموضع- أن مصر دخلت في بيعة على بن أبى طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاة من قبله، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة، وحققا كان يحدث فيها أحياناً تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوي بعينه. وتمضى مصر معتنقة مصر لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية، وينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب، ولم يفلح أحد منهم في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب.

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومر بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى أبنه موسى الكاظم

---

(١١) انظر فى هذه الدعوى رسالة افتتاح الدعوى للقاضى النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستنثرية (طبع دار لافكر العربى) وكذلك الهمة فى آداب اتباع الائمة. وانظر كتاب اعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر الطبعة الرعبية) ص٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف.

obeikandi.com

وتواليت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفي منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه ومر بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القدّاح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعاتهم هيا لعبيد الله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائمة فالمنصور فالمعز الذي اتسع بالدولة ومد حدودها شرقا إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعلى وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصيٌّ لسلفه طبقاً للترتيب الإلهي في خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم- في اعتقادهم- فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: "على منى بمنزلة هارون من موسى" كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تتابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثان قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرا أو علانية وجهرا، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويبذلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضوون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء.

obeikandi.com

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مهما كانت صغيرة، لما ينتقل في أصلابهم- حسب اعتقادهم- من نور إلهي ينقى أرواحهم ويخليها من دواعي الشر وآثامه، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال ينتقل في الأئمة جيلا بعد جيل.

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآبائه مستدلين بمثل قوله تعالى: (وكذلك يَجْتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث) زاعمين أن للقرآن ظاهر ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم، خُصُّوا من دون غيرهم من البشر. واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والممثول، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول. وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها. وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوي. وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة، لآي الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم، مما لا يتحمله ظاهر القرآن أي احتمال، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية.

ونصل إلى المبدأ الخامس الذي يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما. وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية، غذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدواء كل دور يتكون من سبعة،

obeikandi.com

والسابع هو الغمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذي انتقلت إليه قدرة الله، وعنه تصدر النفوس الكلية التي يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات. ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدوري السبعي الكوني، وكل دور يَدْعَمُ عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد. ويتجلى النور الإلهي في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحمالة لرسالة نورانية باهرة. وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فاعلاً وأن عليا وصيه- في اعتقادهم- كان نفسا كلية، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح على عقلا فعلا. ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولاً كلية مدبرة للكون.

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم، وهم يبدءون فيقولون أن لكل إمام نسبتين: نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس، بالضبط كما يعتقد النصارى في المسيح. وزعموا أن الله- جل جلاله- ينبغي أن ينزه عن كل الصفات والأسماء، وقالوا- بزعمهم- إن أسماءه الحسنى إنما هي أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن يسمى باسم أو يوصف بصفة. ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التالية، بل لقد حسبوهم تجسدا للذات العلية، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه "مطالع الشموس في معرفة النفوس": "أعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلوا من زمان ولا يجوز مكان، لأنه إلهي الذات، سرمدي الحياة، ولم لم يُتأَنس إلى معرفة بالحدود والصفات سرمدي الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يعرف إلا

obeikandi.com

بأسمائه وصفاته. ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سولوا للحاكم بـأمر الله أن يظن أو يتوهم أن التجسد الإلهي للذات العلية، فدعا له بعض دعاتـه إلى عبادتـه. ولمـا طفح الكيل قُتل في ضواحي القاهرة، وأشاع أنصاره أنه اختفي وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس.

ومبدأ سابع هو مبدأ سلبي، إذ كانوا يلغون الاجتهاد والأخذ بالقيـاس في الـشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام، وهو معصوم مـن الخطأ، والحكم إذن حكمه والفتـوى فتـواه دون منـازع. وبـذلك الغـوا حريـة الفكـر والرأي وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمـة والجماعـة. وثبـت ‘نـدهم ذلـك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامـه، إذ هـو الـوارث لعلـوم أهل البيت.

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية، ولهم في الفقـه بعـض الآراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناداة في الأذان بحي على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخر، ومثل مسح القدمين في الوضـوء بالمـاء لا غـسلهما. ولعـل دولة عربية لم تُعْنَ بالدعاية ما عُنى الفاطميون، فقد كان لهم في كل بلـد دعـاة، وكـانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاتهـا، وللدعاة ميعا رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب، ويليه الحجـة وهـو كبـير الدعاة في الإقليم، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علـوم أهل البيت ويأتي وراء ذلك الدعاة والنقباء من كل صنف.

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني، وكأن مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية، بل ظلت سنية ومبتعدة عنها، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا. ومع ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي، ربما أعتقنه بعض أفراد أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لبيب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته وبيانها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سنيين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتنق مذهبا من مذاهب الشيعة، فضلا عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

obeikandl.com

٦

الزهد(١٢) والتصوف

مصر – من قديم – بلد دين، تعيش به وتعيش له؛ وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لديها الوثني في عصر الفراعنة، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيها تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني، نافذة خلال ذلك إلى الرهبنة التي أشاعتها في هذا الدين، حتى غدت من خصائصه، فإذا أناس من معتقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين. وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة، وهى نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي. وحقا ق نجد أحياناً أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون، وق نجد أسرابا من المجون في بعض الأزمنة المتأخرة، ولكن ذلك لم يكن

(١٢) انظر فى الزهد والتصوف الولاة والقضاة للكندى، والمغرب، وحسن المحاضرة للسيوطى، وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى، والطبقات الكربى للشعراني. وكذلك كتاب لواقح الأنار، والخطط المقريزى فى الخانقاهات والرباطات والزوايا وارسالة القشيرية، وكشف المحجوب للهجويرى ترجمة الدكتور إسعاد عبد الهادى قناديل وأخبار الحكماء للقفطى وتهذيب ابن عساكر، وابن خلكان وابن شاكر فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ البرتى وكتاب فى التصوف والإسلامي لينكلسون والحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة، وإبراهيم الدسوقى وأحمد البدوى فى دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف فى مر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل.

يعدو زبدًا أو قشورا تبدو أحياناً فوق السطح، أما الأعماق فترفض المتابع الدنيوي المادي وتتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي.

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طيباتها، وأقرأْ في تراجم القصاص الواعظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنيفة من الجوع وغير الجوع. نذكر منهم سليمان التجيبي، وهو أول من قَصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته، وكان يختم القرآن في كل ليلة زلفي وتعبدًا لربه. منهم المُزَني صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته: "كان في غاية الورع، وبلغ من احتياطه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس، فقيل له في ذلك؟ فقال: بلغني أنهم يستعملون السَّرْجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها. وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفردا خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكا لفضيلة الجماعة، مستنداً في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة". وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة". ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب: قسم الفسطاط: "كان أحد البكَّائين والتالين لكتاب الله، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه، وكان يكثر الوعظ للخصوم". ويورد السيوطي ثَبتاً طويلا بمن كان بمصر من

الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن على بن أبى طالب المتوفاة سنة ٢٠٨، وكانت مقيمة في موضع مسجدها اليوم بالقاهرة، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها. ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلا، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهى في مُصلاها بغير فراش.

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السَّريّ بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة سمون الصوفية يأمرون بالمعروف يعارضون السلطان في أمره ترأَّس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي. ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر. ويروى الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكأن التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجري. وقد أورد القشيرى في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفي، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم، أو هي من الصفة وأهلها الذين كانوا ينقطعون لعبادة في المسجد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يرجع القشيرى رأيا على آخر، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة

من كملة وفيا بمعنى الحكمة عند اليونان، ونظن ظناً أنها مشتقة من الصوف لأنه لبس شاع مبكرًا بين المتصوفة.

وما نمضى طويلا في القرن الثالث الهجري حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصري أستاذ أبى تراب النخشبي المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذو النون المصري المتوفى مع أبى تراب في نفس السنة، واسمه ثوبان بن إبراهيم، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمي. كان أوحد وقته زهدًا وورعا وعبادة ونسكا، طلب الفقه في أول حياته فتتلمذ للبث بن سعد فقيه الفسطاط، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عن الموطّأ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتتلمذ لشُقْران العابد. ويذهب نيكلسون إلى انه المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي مستنداً في ذلك على قول ابن تغرى بردى "إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات" وبذلك جعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعا- غير منازع- في العالم الإسلامي. وينقل عن تذكرة الأولياء للجامي أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع، وأنه ذكر كأس المحبة الذي يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام قسما عاما لمسلمين جميعا وقسما خاصا بالفلاسفة والعلماء وقسما خاصا بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم. وبذلك ميز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والدس، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والنطق، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علما ولا فكرا وإنما هو أحوال ومقامات وهو- بذلك- إن صح أن يسمى علما، علم باطن مقصور على الخواص ودائما كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله: "توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من

الغفلة" وكان يقول: "ليس من أحتج عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة". وكان يقول أيضاً: "الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نقطت عنه الجوارح بقطع العلائق". وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفي على الله قائلاً: علامة التوكل انقطاع المطامع. وكان يقول: "من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله (أي رسوله) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه". وفي هذا القول ما يدل بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أي انفصام وأن ما ذكره الهجويري في كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة، والحية الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية. واستحضره الخليفة المتوكل من مصر، فلما دخل عليه وعظه، فبكى المتوكل ورده مكرما وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول: حَيّ هَلا بذي النون. ويقول إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء.

ويذكر القشيرى في رسالته والهجويري في كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشم ويوسف بن الحسين الرازي شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخَّراز وهو أول صوفي تكلم في الفناء وسهل بن عبد الله التسترى شيخ الحلاج الصوفي المشهور. وفي ذلك ما يشهد بأن أثر ذي النون ومصر في التصوف وتاريخه كان أثرا بعيدا وعميقا إلى أقصى حد. ويشتهر بعده غير صوفي بمصر، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان لأخرى طوال القرن الثالث، ونذكر من متصوفتها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيتها وهو بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته، ومن

obeikandi.com

صوفيتها أبو على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢. ويقول ابن سعيد في المغرب قسم الفسطاط: كان الإخشيد يجب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم، وأنه ركب إلي رجل صلح بالقرفة يسمى ابن المسَّيب وسأله الدعاء، وأنه كثيرا ما كان يلم بأبي سهل بن يس يطلب منه الدعاء في خشوع متبركا به.

وتدخل مصر في أيام الفاطميين، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلا منهم كان يزعم لنفسه علم الباطن، وكان الصوفية يقولون بحق ن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطني، وزعم الفاطميون لأئمتهم نهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه، فادى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين، وبذلك أنصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله. في هذه الأثناء حدث صَدْع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة في المشرق: في العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات، وقالوا إن الأهم في الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية، بل عن منهم من أهمل هذه الفرائض، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة. وتنه القشيرى والغزالي إلى خطورة هذا الصدع في بنيان الحياة الدينية وحياة الأمة، فعملا بقوة على رأيه، بحيث ل يكون المتصوف متصوفا حقا إلا إذا أدى الفرائض والسنن الدينية، ولا بد للفقيه في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني

وبذلك عادات إلى صفوف المتصوفة والفقهاء- بل إلى صفوف الأمة- الوحدة، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري، فوقت الأمة ميعا بنيانا مرصوصا ضد

obeikandi.com

أعداء الإسلام، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويستحقوا جموعهم سحقا. وحمل المتصوفة والفقهاء السلام وتقدموا صفوف المجاهدين، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء، كما أخذ يعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة، وأتخذ لهم في القاهرة دار كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء، جعلها لهم "خانقاه" ومعناها بالفارسية دار عبادة، يعبدون فيها الله وينسكون وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ وهى أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ، ورتب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات، ورسم لهم رسما: أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمتصوفتها وأن من أراد مهم السفر يُعْطَى ما يكفل له سفره، وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف، وقد حمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر في مصر، وأتضح فيه اتجاهان: اتجاه فردى فلسفي، واتجاه جماعي سني، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية، وهو يصور في شعره وجده وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى ما نعم به في شهوده، مع مدحه للرسول الكريم، وقد رفع حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية وكان يقابل هذا المنزع الصوفي الفسلفي

الفردي المنزع الصوفي الجمعي، وقد هيت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من رق التصوف السني، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين، وما نمضي في القرن السابع طويلاً حتى ينزل بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة، ونراه هو وتباه ومريديه في مقدمة الصفوف التي دمرت في موقعه المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حماسه ملتهبة.

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دول المماليك، وتعظم رعايتها للمتصوفة، فتبنى لم كثيراً من الخوانق والرابطات والزوايا، ويعد المقريزي من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية، ويقول المقريزي: بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا، وكان بها أربعمائة صوفي، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوي وقراءة الذكر الحكيم. ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى لها مسجدا وحماما ومطبخا، وأيضاً كان ملحقا بها حمام للناس مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة. وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخاري وصحيح مسلم. وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر

رباطا، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ. وأصل الرباط الثغر في دار الحرب، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد. ومن الطريف أن أحد الرباطات كان خصصاً للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولهن، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة. وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنساك وكانت ترتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة.

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسعت في رعاية المتصوفة ونلتقي في أوائلها بأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية- كما قدمنا- وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان: الوفائية والخلوتية. وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربة فروع. ونلتقي بإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية، وبأحمد البدوي المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا.

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين- كما قدمنا ت الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية. ودخلتها فروع من المولوية أتبع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣، ومن القَلَنْدِرِيَّة وهم تباع قلندر يوسف، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة، ويقول المقريزي إن أول ظهورهم كان بدمشق ٦١٩ للهجرة. وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المماليك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندي المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية. وشاعت أيام العثمانيين

obeikandi.com

الطريقة الخلوتية المتفرعة- كما أسلفنا ت من الطريقة الشاذلية، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفي كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة، والشيخ الحفني، وعنه خذ الطريقة أحمد الدردير، وسنعرض له في غير هذا الموضع.

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد، فلكل نها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات، وتتميز أيضاً بالأزياء، فعمائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء، وعمائم القادرية بيضاء، وهى عند الأحمدية حمراء، وعند الرفاعية سوداء. وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته، وحتى يثبت خلاصه الشديد له، فليحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف: شعار الطريقة، ويصبح ظلا له، إذ تتلاشى إرادته في شيخه تلاشيا تاما وفي ذلك يقول الشعراني في كتابه: "لواقح الأنوار" نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقي: "المريد مع شيخه على صورة الميت، لا حركة ولا كلام، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه غلا بإذن، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالفة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك". وتمضى الأيام ويصبح المريد شيخا، وكانوا يرسلون المريدين إلى البلدان والقرى، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون في وطنه وفي الوطن الإسلامي الكبير، وإذا هو صاحب طريقة كبرى، ولكل طريقة شيوخها الكبار.

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة في نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاتهم، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء، ممكن كانوا يعتمدون في

obeikandi.com

معاشاتهم على الهيئات الحاكمة، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها. وبذلك كان لهم استقلال روحي واضح، جعلهم يقفون أحياناً في وجوه الحكام، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أن طغيان أو زيادة في الضرائب أو غير ذلك. وهو ما جعل العامة في كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا شديدًا، كما جعل الحكام من المماليك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم. ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحياناً. ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام المماليك، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها، وكان سلاطين المماليك يرهبونهم وينفذون لهم ما يريدون. مما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين المماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعاً، فقد لجأ إلى يقبل السلطانة إلا بعد أن يخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره.

وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام المماليك، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي، وعفيف الدين التلمساني نزيل دمشق وسكانها المتوفى سنة ٦٩٠. وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية ينبع، نزل أبوه مصر، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف، وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه

الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي، وربما لقيه حين زار مصر، أو لعله رحل إليه في دمشق، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفي سنة ٧٠٣ وكأن مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقة مسربا إلى مصر.

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام المماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم، بسب بتحول خانقاهته وربطاته وزواياه إلى تكايا وَسِعَتْ كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سموا بالمجاذيب والدراويش. وكان منهم من يحلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله، الله براء منه، لانحرافه عن جادة الدين. على أنه ينبغي أن لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة، وإذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين: أكر الأزمنة تدهورا وتأخرا. ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفي والسني، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي القشيرى وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة الشعرانية. وله مصنفات كثيرة تعد بالعشرات، أكثرها في التصوف، أشعار فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب، بل أيضاً لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة. وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد، فهو لا يقبل منهم مالاً ولا

هدية. وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان، فأجابه توًّا: ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس ببنت شفة. ويقول الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه: "كان الإمام العلامة الحفني قطب رحى الديار المصرية ولم يتم أمر من أمور الدولة إلا بإطلاعه وبإذنه". ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة- كما كانوا في الأيام السالفة- يستشعرون استقلالهم الروحي والمادي إزاء الحكام، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وما له من قوة وسلطان.

obeikandl.com